بسم الله الرحمن الرحيم

شذرات عن طنجة
من خلال «جُؤنَة العطَّار» للشيخ أحمد بن الصديق[1]

في منتصف سنة ١٩٥٦ بدأت دراستي العتيقة في الزاوية الصديقية - منارة العلم والهدى - على العلاَّمة الإمام الشيخ سيدي عبدالحي بن الصديق رحمه الله، فظَفِرت بإناء علم مُترَع ينساب عُذوبة على حلقاته التي يَلوح منها مقطع الحق العتيد عند المقارنة في أنصع بيانه، ويتدفق فيها فصل الخطاب عند الترجيح في أبهى شموخه، كما يَرشَح سلساً سائغاً على جلساته التي يقودها مقاداً سهلاً طيّعاً لا التواء فيه ولا غموض.. وأكبرت الشيخ، ولازمته، وتوثقت بيننا عرى الصداقة الخالصة على مدى أربعة عقود كان لي خلالها أباً روحياً حتى أفضى إلى دار الكرامة.

وكثيراً ما كنت أسمعه يقول في إعجاب: قال الأخ في «جؤنة العطار»، وذكر الأخ في «جؤنته».. فقويت عندي الرغبة في الاطلاع على هذا الكتاب، فدلَّني على نسخة منه بيد الشيخ الجليل العلاَّمة سيدي عبدالله

---

(١) أحمد بن الصديق (١٩٠١ - ١٩٦٠) من كبار العلماء الحفاظ الأثبات المجتهدين، درس بالأزهر وتوفي بالقاهرة، حياته حافلة، له أزيد من مائتين وخمسين مؤلفاً، بعضها في أجزاء من تفسير وحديث وفقه، وتصوف، ونقد وتراجم وغيرها، وجلها مخطوط.

التليدي ـ بارك الله في عمره ـ الذي استأذنته في نسخها ـ وهي بخط يده ـ فأذن في ترحاب ومكّنني منها. . وكنت أرجع عند تحقيق النص من تدعيات الأخطاء إلى بعض أمهات كتب الحديث والتراجم والأدب، وأقارنه بمخطوط الخزانة العامة بتطوان، ثم أنقِّحه أخيراً مع شيخنا الإمام بحضور ثلة من الرفقاء. فكان أحدهم يسرد أصل مخطوط الشيخ التليدي وأنا أتابع في دفتري ما نسخت بخط يدي، وشيخنا يرشد وينبّه. وكنت أضع لكل فقرة من فقرات «الجؤنة» ـ وقد بلغت حسب ما انتهيت إليه من عدد نصوصه سبعمائة وواحدة وستين فقرة تختلف طولاً وقصراً ـ أضع لها عنواناً يلائم فحوى مضمونها لأن المؤلف ـ رحمه الله ـ اكتفي بأن يصدرها بِلَفْتَةٍ يسميها: فائدة، أو غريبة، أو طريفة، أو لطيفة. . وطبعت الجزء الأول والثاني على الساحبة سنة ١٩٨٢، ولم أتمكن من طبع الجزء الثالث لأسباب حالت دون هذه الرغبة خاصة وقد ذاع أمر الجزءين!

وبالأمس القريب بشرني صديقي الدكتور عبدالعزيز خلوق التمسماني بأن مجلة «دار النيابة» الغراء ستستأنف ـ قريباً بحول الله وفي حلة جديدة ـ مسيرتها العلمية بعد فتور أدركها وطال مداه، وقد ترك فراغاً داجناً في حقل الإصدارات التاريخية عن المغرب المعاصر. . بشرني وطلب مني أن تكون لي في عددها المقبل كلمة عن الزاوية الصديقية. فجالت في خاطري اختيارات قد تنساق مع المنهج العلمي الذي سارت «دار النيابة» على دربه من أبحاث، ودراسات، وعروض، وتعريفات، وتحقيقات، واستقر عزمي ـ آخر المطاف ـ على أن أجلي عن كتاب «جؤنة العطار» غبار النسيان، وقد أودع فيه مؤلفه حافظ العصر الشيخ الإمام سيدي أحمد بن الصديق ـ أسكنه الله أعالي الجنان ـ مواهبه الحديثية، وأثراها بملاحظاته وتعقباته وتعليقاته على الكتب والحياة، وصبَّ فيها مساجلاته ـ وما أخصبها! ـ وأفرغ سجاياه ومشاعره في غير قليل من المواضيع الحرجة الحاذقة. . هذا الإمام النحْرير الذي تحلّى بطهارة المروءة، وزهد العفة، وعزة النفس لا يعنو لهوان، ولا يصبر لغضاضة. . ائتمرت به نوادب الدهر وصرفه، فأذكت عليه دوائر الاستعمار عيوناً راقبة، ونصبت له المراصد حيثما حلّ وارتحل. .

فأوذي وسُجن.. وأساء إليه قومه، فلم يُغْضِ على القذى - وهو ذو حِفاظ - فغضب في حميَّة، واستل قلمه البتار، واقتحم المعترك، فكانت مما كان قصيدته تلك «بعرة النعجة» التي ثار النقع حولها ردَحاً من الزمن، وتجدد الجدل حولها من فترة قريبة! وفي «الجؤنة» إشارات إلى بعض معاركه القلمية واللسانية التي أصبحت طرائف تاريخية تروى اليوم دون إثم ولا حرج..

ومن هنا مالت بي الرغبة - والشرط أملك - إلى مراجعة هذا الكتاب الممتع، لأنتَجف شذرات ونتفاً من وقائع لها صلة تاريخية وعلمية بمدينة طنجة وببعض أهاليها رحمهم الله. وآثرت أن أبث النص بحرفه كاملاً غير مبثور، وأن أتجنب فضول التعليقات. ونزوة الاستدراكات، وهوى الإشارات حتى لا أقحم نفسي بين سجية المؤلف وقابلية قارئه إلا ما كان من بيانات طفيفة يلحّ عليها المقام..

فلْنُصغِ إلى شيخنا الإمام الحافظ سيدي أحمد بن الصديق يحدثنا فيقول:

❊❊❊

تاريخ الفقيه الغسال عن طنجة(1)

ألّف صديقنا الحاج الغسال الطنجي - رحمه الله - رسالة في تاريخ طنجة في نحو ثلاث ورقات أو أربع سماها: «إيضاح البرهان والحجة على

---

(1) طريفة رقم ١٤١ من تحقيقي.
وأشير إلى أن في العدد الأول لمجلة «دار النيابة» كشفاً عن مخطوطات العالم الفقيه السيد الحسن الغسال (١٨٦٦ - ١٩٣٩) التي بلغت واحداً وعشرين مؤلفاً، وقد صرف الدكتور عبدالعزيز خلوق التمسماني عنايته بها، فنشر منها إلى حد الآن:
- «الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية» ١٩٩٨ - مطبعة فضالة بالمحمدية - وقدمت لهذا الكتاب عرضاً نشر في «جريدة طنجة».
- «إيضاح البرهان والحجة في تفضيل طنجة»، مجلة «دار النيابة» ع١٠/١٩٨٦.

تفضيل ثغر طنجة» ذكر في أوله أسطراً دون نصف ورقة في وجه تسميتها طنجة، وفي أول من بناها، ثم لم يعدل إلى ذكرها فضلاً عن براهين تفضيلها، بل ذكر أن أهلها مبتلون بسوء الحظّ من بين سكان المغرب، وجلب بعض الأشعار[1] والنقول في سوء الحظ، فتم بذلك تاريخ طنجة وإقامة البرهان على تفضيلها!!

❋ ❋ ❋

مؤلفات الفقيه الغسال تجمع كلها في ظرف[2]

رأيت في ورقة بخط الغسال المذكور أسماء مؤلفاته، فرأيت من بينها الرحلة إلى جبل طارق من طنجة، وهو سفر ساعة ونصف إلى ساعتين في البحر، والمدينة فيها شارع واحد يقطعه المرؤ في بضع دقائق، ومع ذلك فليس بها مسلم، ولا مآثر، ولا ما يلفت النظر بالمرة، وإنما هو جبل دائر به البحر من جميع جهاته إلا من جهة واحدة، فإن لم يسؤه في هذه الرحلة سوء الحظ ـ كما قال في تاريخ بلده ـ فما أدري ما قال!

وأغرب من هذا أنه ذكر في تلك الورقة أيضاً أنه اختصر حزب الجزولي المعروف عند المغاربة «بحزب عيساوة»!

وكان معنا مرة في مجلس فجرت فيه مذاكرة في مسألة فألف فيها تأليفاً وجعله داخل ظرف من ظروف الجوابات المعروفة، وبعث به إلى بعض أصدقائه.. ومن ذلك تعلم مقدار جُرم مؤلفاته التي لو جمعها كلها في ظرف لوسعها!!

❋ ❋ ❋

(١) يخلو النص المنشور للإيضاح من الأشعار التي أوردها المؤلف. ولعل في النسخة التي وقف عليها الشيخ سيدي أحمد بن الصديق إضافات لم توجد في هذا النص.
(٢) طريقة رقم ١٤٢.

أحد علماء طنجة يعرف الحيوان الناطق بأنه المصوت(١)!

كنت في أيام الطلب في مجلس مع بعض علماء طنجة، فجرى ذكر قول المناطقة في تعريف الإنسان: إنه حيوان ناطق، فأردت اختبار معرفتهم، فقلت: ما مرادهم؟ فقالوا: المتكلم.. فعرفتهم بأن مرادهم به المفكِّر بالقوة العاقلة.. فأبوا كل الإباء من تسليم هذا، فمررت في طريقي بدكان عالم منهم يدرس دائماً «الآجرومية» و«الاستعارة» والنصف الأول من «الخلاصة»، وربما درس «السلم» في المنطق أيضاً، فقلت له: ما مراد المناطقة بقولهم في تعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق؟ فقال: مصوت!! فقلت له: قد وسعت الدائرة وزدت في الطنبور نغمة!

❊ ❊ ❊

الفقيه الزوضي وجرأته(٢)

حدث صديقنا الفقيه محمد بن العياشي سكيرج(٣) الفاسي نزيل طنجة قال:

«زرت الفقيه عبدالرحمن الزوضي(٤) الطنجي يوم عيد شوال سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف وهو يذاكر بالتاريخ ويدعي معرفته، فقلت له: من عجائب الاتفاق ما وقفت عليه في ترجمة كتب التاريخ الألمانية للمغرب بالعربية أن في سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف كان حاكم طنجة الحاج عبدالسلام بن عبدالصادق، وهذه سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف وحاكمها أيضاً الحاج

---

(١) طريقة رقم ١٤٣.

(٢) طريقة رقم ١٤٤.

(٣) أورد الدكتور عبدالعزيز خلوق التمسماني في كتابه «بحوث ونصوص حول تاريخ المغرب المعاصر» ص١٠٨ بحثاً مفيداً مجيداً عن مخطوط الفقيه الأديب المترسل محمد بن العياشي سكيرج (١٨٧٥ ـ ١٩٦٥).

(٤) عبدالرحمٰن الزوضي (ـ ١٩٣٤) عالم فقيه مشارك، له إلمام بالطب، ولوع بالطرب الأندلسي، درس في القرويين، وعمل كاتباً ممتازاً بدار النيابة، اعتزل الوظيفة ولزم بيته سنوات، فكثر عليه الزوار من الأعيان والأهالي، وكان يفتي فيما يعرض عليه من النوازل، قبره بغرسة ضريح بوعراقية بطنجة.

عبدالسلام بن عبدالصادق، فتوافق الحاكمان في الاسم، واسم الأب، والوصف وبينهما مائة سنة! فاستعجب من الاتفاق، ومضينا في الحديث، وإذا الحاكم الحاج عبدالسلام المذكور جاء لتهنئته بالعيد، فلما جلس التفت الزوضي إليه وقال له: سأفيدك بنكتة تاريخية عجيبة لا يعرفها أحد، وحتى هذا ـ وأشار إليَّ ـ الذي يدعي معرفة تاريخ طنجة لا يعرفها أيضاً! ثم ذكر ما حكيته له.. قال: فأبلست من وقاحته وصفاقة وجهه»!

❊❊❊

السّنوسي والدّكّالي من القرنيين[1]

كان الشيخ عبدالله السنوسي[2] الفاسي نزيل طنجة ودفينها يميل إلى الاجتهاد والعمل بالدليل، ويتمذهب بمذهب القرنيين في الأولياء والصوفية وينكر عليهم. وكان لا يسود أحداً، وإذا سمع من يسود ولياً أو عالماً يزجره عن ذلك ويقول له: إنه شرك، والسيد هو الله تعالى.. وكان له خادم من طلبة أهل طنجة رافقه في سفرة سافرها متوجهاً إلى السلطان مولاي عبدالعزيز لأنه كان يكرمه. ولما قرب من مدينة فاس ونزل ببعض المنازل كتب إليه كتاباً يعلمه بقدومه، وبعدما كتب ديباجة الكتاب بدا له، فترك الديباجة ورمى بها إلى الخادم ليحرقها، ثم شرع في كتاب آخر.. فلما قرأ ذلك الخادم الديباجة وجد فيها: إلى سيدنا الإمام العادل! إلخ.. مخاطبة الملوك، فاحتفظ بها عنده، ثم بعد مدة وهو جالس معه صار يذكر بعض الأولياء باسم السيادة جهاراً أمامه، فغضب منه وقال له: ألم أنهك أن تسود مخلوقاً، وأقل لك إن السيد هو الله

(١) لطيفة رقم ٤٣٧.

(٢) عبدالله السنوسي (ـ ١٩٣٠) علاّمة محدّث مجتهد، كثير الإنكار على المقلدة، شديد الوطأة على المبتدعة والمتصوفة، رحل إلى الشرق، انتقل من فاس إلى طنجة مع السلطان المولى عبدالعزيز بعد خلعه تمسكاً ببيعته له. درّس صحيح البخاري في الجامع الكبير ومسجد مرشان حيث دفن بغرسته.

وحده؟! فقال له الخادم: أنا إنما اقتديت بك لأني رأيتك تسود المخلوق! فقال له: كذبت، ومتى سمعتني أسود مخلوقاً؟ فأخرج له الكتاب بخطه، فلما رآه صار يصيح به: اخرج عني يا خائن! فذهب عنه وفارقه..

ونحو هذا تقريباً وقع من شعيب الدكالي[1] الوزير، فإنه كان على مذهب القرنيين، وفي آخر عمره ضرب بالفالج، فالتجأ إلى زيارة الأولياء والتوسل بهم! ثم نزل به الحال إلى أن صار يفعل ما يفعله جهال عوام النساء من كتابة الحروز حتى عند أحبار اليهود! وذهب ما كان يصرصر به على الكراسي طول عمره! فاعتبروا يا أولي الأبصار! بل ولما زال من الوزارة ذهبت إليه يوماً فصار يذكر لي أنه صوفي درقاوي كوالده وجدّه، وأنه قال في هذه الأيام لحفيد مولاي العربي الدرقاوي: نحن خدامكم من قديم، وها أنا الآن ترى نزعت من الوزارة مع أن المقري الجاهل عامي رئيس الوزارة، فأين بركتكم تعود معنا حتى أرجع للوزارة وأنا أفعل وأفعل!! فصرت أتعجب منه غاية وهو يحكي لي هذا بلسانه الفصيح مع ما كنت أسمعه منه أيام وزارته وهو على الكرسي من الاستهزاء بأهل الطرق والطّنز عليهم! ولله في خلقه شؤون.

❋ ❋ ❋

بين المؤلف وشقيقه سيدي عبدالعزيز حول شرح «لثم النعم»[2]

لما نظمت «حكم» ابن عطاء الله رضي الله تعالى عنه وسميته «لثم

---

(١) أبو شعيب الدكالي (١٨٧٨ - ١٩٣٧) علاّمة حافظ، التحق بالأزهر ودرّس به، كما درّس بمكة وأعطي الفتوى في المذاهب الأربعة، وأيضاً بجامع القرويين، عمل قاضياً بمراكش ووزيراً للعدلية والمعارف الإسلامية، توفي في الرباط.

(٢) طريقة رقم ٢٨١.

النعم»[1] بعثت به إلى شقيقي عبدالعزيز[2]، وأرفقته بقصيدة طلبت منه فيها أن يشرحه، واستعملت فيها بعض الألفاظ العامية بقصد المزاح والمباسطة، فقلت:

إليك جمالَ الدين نظمي للحكمْ — به تمَّ يسري إذ لَثَمت به النعمْ
وما كنتُ أرجو أن يكون كماله — ولكن به منَّ الإلٰه وقد أتمْ
فإن كنت كَوَّازاً كما قد أظنه — فجرِّدْ لكتب الشرح منك له القلمْ[3]
ولا تكن مِغْجازاً كَسولا كشارب — لكاس الآتاي بعد أكل لحم الغنمْ
يرى كل يوم فسحة بعشية — محتَّمة فرضاً بها الله قد حكمْ
بلى، كن نشيطاً تَمْضِ في العلم بالذي — تفوق به الأقران كالطود والعلَمْ
ولا سيما علم التصوف إنه — إلى الخير مفتاح به تدفع النِّقَمْ
فإن كان مصحوباً بذكر دليله — من السنة الغراء تمَّت به النعمْ
فجرد سيوف العزم وانبذ عوائقا — وبادر بما تشرحه من نظمي «الحكَمْ»
وإن كنت مختاراً لما قد أقوله — فسمِّه بعد العزم منك فتح الحكَمْ
وإن لم يكن منك النشاط فإنني — لتصنيف علْم ناشطٌ راسخُ القَدمْ
وما ذاك من حولي ونفسي وقوَّتي — ولكن بما مَنَّ الإلٰه وما قسمْ
ودعني لترتيب لها متوجهاً — بشرح له إن كان في الأزل انقسم
ولا تُبدِ تطويلاً مُملاً وإنما — تحلّ به الألفاظ حلًّا به يفهمْ

(١) «لثم النعم بنظم الحكم» في سبعمائة وسبعة وستين بيتاً، فرغ منه يوم الإثنين ١٠ ربيع الثاني ١٣٧٠ وهو بسجن أزمور، وعندي نسخة مصورة بخط المؤلف، وللعلاَّمة الشيخ سيدي محمد البقالي شرح لم يتم على هذه المنظومة، وبيدي ملزمة منه مصورة.

(٢) عبدالعزيز بن الصديق (١٩١٩ - ١٩٩٧) علاَّمة محدّث كبير بحاثة واسع الاطلاع، درس في الأزهر على كبار المشايخ، له مواقف حازمة مقدامة، ترك إلى عديد من مقالاته في الصحف والمجلات أزيد من مائة وخمسين مؤلفاً في الحديث والفقه والتصرف وغير ذلك من فنون العلم.

(٣) كواز بالعامية = مقتدر حاذق.

ويكفي ابن عباد وما لحواشيه وشرح لجدّنا الذي يوقظ الهمم[1]
فإن تم فاعلم أنني سأزينه بحاشية والأمر سهل، فقل: نعم
فإني فاعل في أقرب مدة فهيئ لها الأسباب منك ولا تنم
واذكر في شرحي الحديث مجردا من الغَزْو كي تعزوه أنت بلا وهَمْ
فقل: ما تريد الشرح أو أنت رائد لحاشية، أو قل: أميل إلى العدمْ
لأني مشغول عن الكل منهما بشأني وشأن البيت والزَّلْط قد ألمْ[2]

فكتب إليّ مجيباً بقوله:

أسوق سلاماً عاطراً وتحية مباركة تنحو الإمام الذي نظمْ
إماماً تود العين رؤية وجهه ويسعد مني الفم إن كفَّه لثمْ
فقد صار قلبي من تغيب وجهه وطلعتِه الغراء لحماً على وَضَمْ
لشدة حزني والأسى وتحرُّقي فهل مع هذا يمكن الشرح للحكمْ؟
ولكن إجابة لطاعة أمركم سأشرع في شرح لمن لثم النعمْ
أحلّ به لفظاً تعذّر فهمه وأبدي به معنىً على القارىء انْبَهمْ
وأبذل مجهودي بذكر دلائل من السنة الغراء تشهد للحكمْ
أجنّبه التطويل في اللفظ مثلما ذكرتُم فإن الجيْل ليس بهم هِمَمْ
ولست كما قلتم كسولاً كشارب لكأس الآتاي بعد أكل لحم الغنمْ
وليس له هَمٌّ سوى ملء بطنه مع العصبة الخرقاء بالحَيل الأَشَمْ

---

(١) محمد بن عباد النفزي الرندي أبو عبدالله (٧٣٣ ـ ٧٩٢ = ١٣٣٢ ـ ١٣٨٩) وُلِد برندة في الأندلس وتوفي بفاس، كان يقال: مما منّ الله به على العباد شرح الحكم لابن عباد. وسمى شرحه «غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية» طبع في جزءين بتحقيق الدكتور شيخ الأزهر عبدالحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف.
وللحكم العطائية شروح بلغت أربعة وعشرين شرحاً على ما يعلم، كما عُني بنظمها شعراً فبلغت سبع منظومات.
ويشير المؤلف بقوله: وشرح جدنا، إلى كتاب «إيقاظ الهمم في شرح الحكم» للعلاَّمة المفسر العارف سيدي أحمد بن عجيبة (١١٦١ ـ ١٢٢٤ = ١٧٤٧ ـ ١٨٠٩).
(٢) الزلط بالعامية = الإملاق والعسرة والفاقة.

بلى، ليس من شُغلٍ عن العلم صارفٍ ... لرغبتنا حتماً ولا الزلط إن ألَمّ
فإن لنا في الزلط أكْمَلَ راحة ... وفيه بدا التخريج من موقظ الهِمَمْ[1]
عزوتُ به آثار شرح لجدنا ... وخرَّجتها عزواً وأنرتُ به الظُّلَمْ
كذاك «تصرف» الكلاباذي بعده ... بعزوي له قد كان والزَّلط قد هجمْ[2]
كذاك رسالتي «الإفادة» بالذي ... روى الناس عن خير الأنام بما انتظمْ[3]
بتفضيل نظرة لوجه خليفة ... هو المرتضى خير الصحاب بلا وهمْ
ونقدي للصاغاني في حكمه على ... الحديث بوضع كان في زلطة أطمّ[4]
كذا كل ما ألفته وكتبته ... وحققته في العلم والزلط ما انعدمْ
فقد أنِست روحي به وبفضله ... تفرغت للتأليف والواجب الأهمّ
فإن كان سيف العزم مني مجرّداً ... ما قلتمُ فالشرح سوف يكون تَمّ
وهذا جوابي ناظماً مرسَلاً إلى ... إمام جليل فاضل نظَّم «الحكم»

***

التكبيرات السبع على الجنازة[5]

توفي بطنجة الشريف التهامي الوزاني[6]، فحضرت جنازته، وقدمت

---

(١) يعني كتابه «رفع العلم في تخريج أحاديث إيقاظ الهمم بشرح الحكم» مخطوط.

(٢) يشير إلى كتابه «التعطف في تخريج أحاديث التصرف في مذاهب التصوف» مخطوط. و«حسن التصرف بشرح التعرف» كتاب جليل لأبي بكر التاج الكلاباذي (- ٣٨٠) المحدّث الكبير صاحب كتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» الذي قيل فيه: لولا التعرف لما عرف التصوف.. كان الكلاباذي من أهل بخارى، حنفياً صوفياً مشاركاً في مختلف العلوم، له عدة مؤلفات.

(٣) هو كتابه «الإفادة بطرق حديث النظر إلى علي عبادة» مخطوط ـ وقد كنت طبعته على الساحبة سنة ١٩٨٢ وصدرته بتقديمي له.

(٤) يلمع إلى مؤلفه «التهاني في التعقيب على موضوعات الصاغاني» ـ طبعته دار الأنهار القاهرية سنة ١٩٧٧.

(٥) فائدة رقم ٢٠٩.

(٦) الشريف مولاي التهامي الوزاني هو ابن الشريف القطب سيدي الحاج عبدالسلام رحمه الله (١٨٢٩ ـ ١٨٩٢) توفي عام ١٩٤٠ عزباً في سن متأخرة، كان نبيلاً وديعاً.

للصلاة عليه، فكبرت عليه سبعاً. وكان في الجنازة كل أعيان طنجة وقاضيها وعدولها، فقامت قيامتهم لفرط جهلهم بالسنة، فقائل منهم: إن هذه صلاة العيد! وقائل: ما سمعنا بهذا في الدين! بل بالغ بعض علماء البادية المقيمين بها فقال: هذا بلد يجب أن يهجر!! فألفت لذلك في المسألة جزءاً حافلاً سميته: «الإجازة للتكبيرات السبع على الجنازة»(١)، سال معه لعابهم وانحلت له جِبابهم، وكان ذلك أول ما طرأ ذهنهم.. فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ولا حول ولا قوة إلا بالله سبحانه.

ولما بلغ خبر هذا لبعض المدرسين الكذابين في مدينة رباط الفتح ذكر يوماً في درسه هذه القضية وزاد فيها: فقيل له: لم كبَّرت عليه سبعاً؟ قال: لأنه كان كثير الذنوب!! كذا افترى علينا، ولعنة الله على الكاذبين.

***

من آفات حبّ الدنيا(٢)

حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأصل كل رذيلة، ومنشأ كل بلية، وهو مفتاح باب الكفر، بل هو الكفر بعينه، ولأن يبتلي الله العبد بكل كبيرة ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتليه بحب الدنيا. فحب الدنيا يصيِّر الجبال الشمّ من العظائم كالذرة، ويريك السيئات حسنات، والرذائل فضائل! ويخلع عن وجهك برقع الحياء، بل يقلعه من نفسك بالكلية، ويرمي به مع الفضيلة حيث لا تبقى تعرف لها معنى، ولا تشم لها رائحة، ويبقى أخس الكلاب وشرهم أفضل منك قدراً وأعظم منك حياءً ومروءة! ولولا حكم الله السابق لقلت: إن محب الدنيا يجب قتله حدّاً بالرجم كالزاني المحصن! ويشاركه في رذائله - مع الإعلان بالكفر والإلحاد - من دخلت نفسه روح التفرنج والعصرية التي يسميها الملاحدة: الوطنية! فهذان الصِّنفان جرثومة الفساد في

---

(١) ما زال مخطوطاً، وعندي نسخة منه مصورة.

(٢) فائدة رقم ٤١٨.

الكون، وقد رأينا منهم العجائب الدالة على فقدان الدين والمروءة والإنسانية.

منهم رجل مملوك كان بنّاء، فآويناه وعلمناه إلى أن صار من العلماء المدرسين، بل وولي خطة القضاء في بعض النواحي، وعاش معنا أزيد من ثلاثين سنة وهو في ظلنا ونعمتنا إلا أنه كان يحب الدنيا حبّاً مفرطاً، وتقلب في طلبها، وسلك فيها كل مسلك، وأخيراً توجه إلى طلبها من طريق الجاسوسية والتقرب إلى الحكومة بها، وجعل هدفه في ذلك جانبنا، فأتى إلينا ما يطول شرحه! وأخيراً لما اعتقلنا صار يتردّد إلينا إلى المعتقل كزائر وهو يتجسَّس ويريد أن يوقعنا فيما هو أعظم.. ففطنا لذلك وسرنا نسايره إلى أن نزلتُ يوماً - وأنا في الاعتقال - إلى مدينته الساكن بها بقصد العلاج والتداوي، فجاء إليّ مُسلِّماً، ثم ذهب في الحال إلى الحكومة وأعلمها بقدومي وكأنه عرف من أخبره بأن قدومي على سبيل الهرب والخيانة، ولم يعلم بأني قدمت بتسريح ممن هو مكلف، فكاد يجعل من ذلك شر كبير! وجاء إليَّ - بعد رجوعي إلى المعتقل - مدير السجن متعجباً، فلما أطلعته على التسريح الذي كان بيدي فرح بذلك لأنه أتاه عتاب من الرئاسة بالرباط!!

وأعظم من هذا رجل من بلده أيضاً - وهو يحب الدنيا مثله - عاشرني سبعة عشر عاماً أتيت إليه فيها من الإحسان وأنواع البرّ والخدمات ما لم يستطع والده أن يأتيه إليه كما كان هو يعترف بذلك في المجالس والمحافل. وبفرط محبتنا له واعتقادنا إخلاصه وصدقه أطلعناه على بعض الأسرار.. لا والله، ما أطلعناه عليها إلا ليتوصل بذلك إلى نفع دنيوي! فذهب عدو الله وخاننا لظنه أنه سيتوصل بتلك الخيانة إلى منفعة أكبر مما قصدنا له! فكانت خيانته لنا سبباً في فتنة كبرى مات من جرائها قوم تحت الضرب، وسجن فيها أزيد من أربعين نفساً كنت منهم، وحكم عليّ بثلاث سنين ونصف سنة سجناً!!

فانظر إلى حبّ الدنيا ماذا يصنع.. فإذا علمت أحداً تمكّن من قلبه

حبّ الدنيا فلا تردّ عليه السلام فضلاً عن أن تبدأه به. وكان أول الرجلين متظاهراً بالصلاح والتصوف، مربّياً للناس داعياً لهم إلى سلوك سبيل الخير! فأوصله حبّ الدنيا بعد أن نال منها بالجاسوسية ما نال إلى ترك الصلاة وإلى الاستهزاء بالدين!!

فالحمد لله على العافية، ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من حب الدنيا.. آمين..

وبعد.. فحسبي هذه المقتطفات النّزر من «الجؤنة» التي ما أوردتها إلا مورد الإشارة إلى وقائع وأحداث من سجل التاريخ الصامت!

طنجة في ١٨ يناير ٢٠٠٢